مجلة العبر للدراسات التاريخية والأثرية في شمال إفريقيا المجلد: 4 العدد01 جانفي 2021 ص ص: 63-79
ر ت م د (ISSN): 2602-618X / ر ت م د إ (E-ISSN): 2710-8031

الأسرة العلمية في الفضاء الإباضي المغربي خلال العصر الوسيط

"أسرة الفُرْسُطائي نموذجاً"

The learned familly in the Maghrebian Ibadhite sphere during the middle age : case of the Fursutai familly

إلياس حاج عيسى ♦

جامعة تيارت، Ilyes.hadjaissa@univ-tiaret.dz

تاريخ الإرسال: 2020/12/30 **تاريخ القبول:** 2021/01/08 **تاريخ النشر:** 2021/01/16

الملخص باللغة العربية: عرفت دراسة البيوتات العلمية المغربية وتيرة متنامية في السنوات الأخيرة، وكلها متعلقة بأعلام المذهب المالكي، في حين لا نكاد نجد دراسة واحدة عن البيوتات العلمية في الفضاءات الاباضية المغربية، على الرغم من توثيق المصادر الاباضية لعدد من الأعلام المنتمين لنفس العائلة؛ فقد كان صاحب تسمية مشايخ الوهبية كثيراً ما يربط بين الأب والابن والأخ في مؤلّفه. ونشير هنا إلى الاختلاف في تحديد الحدّ الأدنى من الأعلام كشرط لتسمية البيت العلمي بين ثلاثة أو أربعة.

من خلال هذه الورقة العلمية، نسعى إلى البحث في أسرة الفرسطائي، التي قدّمت لنا مجموعة من الفقهاء، وهم:

- بكر بن أبي بكر الفرسطائي النفوسي (ق.4هـ/10م) من الجيل الأول
- أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي (ت.440هـ/1049م) من الجيل الثاني
- أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر (ت.504هـ/1111م) من الجيل الثالث
- أبو يعقوب يوسف بن محمد بن بكر (ت. بعد 471هـ) من الجيل الثالث
- إسحاق بن أحمد بن محمد بن بكر من الجيل الرابع
- إسماعيل بن أحمد بن محمد بن بكر من الجيل الرابع
- أحمد بن يوسف من الجيل الرابع
- أبو نوح بن يوسف (الطبقة الثانية عشر: 550-600هـ) من الجيل الرابع

♦ المؤلف المرسل

– أبو زكريا يحي بن أبي نوح (الطبقة الثانية عشر: 550-600هـ) من الجيل الخامس وليس مستبعداً –أمام قّلة المصادر الاباضية-أن يضمّ هذا البيت العلمي عدداً أكبر من هذا الرقم، ففي معجم أعلام الاباضية تمّ تحديد تسعة أعلام ينتمون لبيت الفرسطائي، لكن بالعودة إلى المصادر لم يتبيّن لنا حقيقة انتماء هؤلاء لبيت أبي عبد الله مؤسّس الحلقة.

تطرح هذه الدراسة مجموعة من التساؤلات حول معايير الأسرة العلمية في الفضاء الإباضي ودلالاته، وأعضاء أسرة الفرسطائي، وإنتاجها الفكري، مع التركيز على دور الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر باعتباره المؤسّس الحقيقي لهذ الأسرة العلمية. في حين تكمن أهمية هذه الدراسة في اكتشاف ظاهرة الأسر العلمية عند الجماعات الاباضية، والاهتمام بها، وفتح آفاق جديدة للتوسع في هذه الظاهرة الفكرية.

الكلمات المفتاحية: أسرة الفرسطائي؛ الإباضية؛ الوهبية؛ أريغ؛ وارجلان

Abstract: The study of Maghrebian learned families is becoming more and more important, and it concerns all Maliki ones and almost nothing is found on the Ibadhite « maisonnette », despite the strong indication of these in the Ibadhite sources . The author of Mashaikh Al Wahbiya had a lot of connections between father, brother and son , and in this article we will take a learned family as an example, of Abi Abd Allah Muhammed Ben Bakr Alfursutai, which contains nine names: -Bakr Ben Abi Bakr Alfursutai Al Naffusi (4H, 10 AD) 1st generation-Abi Abd Allah Muhammed Ben Bakr Alfursutai (440H, 1049 AD)2nd generation-Abu Al Abbes Ahmed Ben Muhammed Bin Bakr (504H, 1111 AD) 3d generation -Abu Yakub Yusuf Ben Muhammed Ben Bakr (after 471H) «3d generation-Ishaq Ben Ahmed Ben Muhammed Ben Bakr , 4th generation-Ismail Ben Ahmed Ben Muhammed Ben Bakr 4th generation-Ahmed Ben Yusuf, 4th generation-Abu Nuh Ben Yusuf , 4th generation-Abu Nuh Ben Yusuf ,(12TH), (550- 600H) 4th generation-Abu Zakariya Yahya Ben Nuh (12th) (550-600H) 5th generation-It may be that this « maisonnette » could contain more than this number , and in this context, our problems arise on the true number of this family, and the criteria of the Ibadhite family and its scientific product and the role of its founder.

Keywords: Fursutai familly ; Ibadhism ; Wahbism ; Arigh ; Ouarjilane

1. مقدمة:

إن دراسة ظاهرة الأسر والبيوتات العلمية في الفضاء المغربي عامة، قد شهدت طفرة مهمة في السنوات الأخيرة، وأنجزت حولها العديد من الأبحاث؛ إذ تنبه المؤرخون واصحاب التراجم للظاهرة وخصّوها بكتابات ومؤلفات وافرة ونهجوا في التأريخ لها نهجين، إمّا العناية ببيوتات العلم في حاضرة معينة، واما تخصيص المؤلف للأسرة الواحدة. من هذا المنطلق كان تفكيرنا في إنجاز بحث حول إحدى الأسر العلمية الاباضية خلال العصر الوسيط، وهي أسرة أبي عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي مؤسس نظام حلقة العزابة، واعتبرنا غياب دراسات علمية عن الأسر العلمية الاباضية محفّزا كافيا لإنجاز هذه الدراسة، خاصة أن مصادر السير والتراجم الاباضية زاخرة وثرية إلى حدّ ما بسير وتراجم الفقهاء.

اقترن اسم أبي عبد الله محمد بن بكر في العادة بفكرة تأسيس نظام حلقة العزابة، والذي خلّد للجماعات الاباضية المغربية بعداً حضاريا امتدّ إلى عشرة قرون، ولا يزال. ولا تكاد تخلو دراسة عن شخصية الفرسطائي من الحديث عن نظام الحلقة؛ إذ نادراً ما تهتم الدراسات بأبعاد أخرى من شخصيته. ونحن نلاحظ أن المصادر تسعفنا بمعلومات عن والده وأبناءه وأحفاده، كان تفكيرنا في إنجاز ورقة بحثية حول الأسرة العلمية في الفضاء الإباضي، وكان اختيارنا لأسرة الفرسطائي نموذجاً. وسنحاول تجاوز دراسة التراجم وإسهاماتها إلى البحث في منظومة الاسرة العلمية من حيث دوافع قيامها واستمرارها وانتقال القيم من جيل إلى جيل والدلالات المختلفة للأسرة العلمية في الفضاء الإباضي. سيكون ذلك من خلال حلحلة بعض الإشكاليات والتساؤلات، من أهمها:

— هل كان كتّاب السير والتراجم الإباضيون واعون بظاهرة الأسرة العلمية وبانتقال القيم العلمية من الأب إلى الابن إلى الحفيد

— هل ينطبق على عائلة الفرسطائي لقب الأسرة أو البيت العلمي وما الفرق بينهما

— ما هو دور أبي عبد الله محمد بن بكر في تكوين أسرة علمية

– مـاهي مسـاهمة عائلـة الفرسـطائي، والتـي بهـا اسـتحقت لقـب الأسـرة العلمية

تكمـن أهميـة الدراسـة فـي أن ظـاهرة الاسـر العلميـة ملمـح بـارز مـن ملامـح الحضـارة العربيـة الاسـلامية قـلّ الالتفـات اليـه والعنايـة بـه مـع مـا يحمـل مـن دلالات فكريـة وثقافيـة وفكريـة اضـافة الـى ان دراسـته تقتضـي تناولـه بشـمولية وبمنـاهج متنوعـة يقتـرن فيهـا العلمـي بـالأنثروبولوجي والمعرفـي بالاجتمـاعي بِهـدف الوصـول الـى فهـم عميـق لآليـات النشـأة وحيثيـات التطـور ولـلأدوار الاجتماعيـة والاسـهامات الثقافية والحضارية لها

مـن بـين الصـعوبات التـي تواجـه دارس الأسـر العلميـة فـي الفضـاء الإباضـي، هـو عـدم اسـتقرار هـذه الأسـر وكثـرة الترحـال مـن مكـان لآخـر؛ إذ أن مسـألة الاسـتقرار عامـل أساسـي فـي انتـاج الأسـر والبيوتـات، حتّـى اننـا نجـد معظـم الكتابـات قـد ربطـت بيوتات العلم بالمدن والحواضر.

2. الفرق بين البيت العلمي والأسرة العلمية

تتميّز الأسر باستنادها الى النبوغ العلمي في مكانتها الاجتماعية بينما تستند أسر اخرى الى الغِنَى المادي او النسب الشريف او الصلاح الصوفي او السلطة والجاه وان ذلك التميز العلمي اعتبر عند ابناء هذه الاسر تراثا تناقله الآباء والاجداد، حفاظا على مكانتهم في خدمة الدين واللغة العربية وفي القيام بأدوار اخرى هامة في المجتمع، فكان هناك دائما في كل الاجيال حرص كبير من اولياء الاسر على نقل المعارف الى ابنائهم ليحلوا محلهم في زعامة الاسرة.

قريبا من هذا المعنى وضع الشريف الكتاني تعريفاً اصطلاحيا للبيت في الحضارة العربية الإسلامية، وقال بأنه بيت المجد والتعظيم بالعلم والولاية والثروة والجود والشجاعة، ولا يقل في الغالب عن أربعة آباء وقد يزيد. وقد ذُكرت عند هشام بن عبد الملك بن مروان، فقال: "البيت هو ما كانت له سابقة ولاحقة، وعماد حال، ومساك دهر. فإن كان كذلك فهو بيت. وهو يقصد بالسابقة ما سلف من شرف الآباء، وباللاحقة: ما لحق من شرف الأبناء، وبعماد الحال: الثروة، وبمساك الدهر: الجاه.[1] وتجمع بعض

1- الكتاني. الشريف عبد الكبير بن هاشم، زهر الآس في بيوتات أهل فاس، ج1، تح: علي بن المنتصر الكتاني، منشورات النجاح، الدار البيضاء-المملكة المغربية، ط1، 2002م، ص.45

المصادر والمعاجم على التلازم الموجود بين مصطلح البيت والشرف والحسب،[2] لكن الدراسات تختلف في تحديد الفروق بين البيت والأسرة العلمية، كما تختلف في تحديد عدد الأعلام للبيت وللأسرة، مع العلم أن من الباحثين من يفرق بين البيوتات الكبرى والبيوتات الصغرى، فالكبرى حسبه هي التي أنجبت ثلاثة علماء أو أكثر اشتهروا بإنتاجهم العلمي، وكانت لهم نشاطات بارزة في مجالات عديدة، والبيوتات الصغرى هي التي أنجبت عالمين أو ثلاثة وكانت شهرتهم أقل وتأثيرهم محدوداً.[3] وكل هذا لا يقاس ببيوت الأنبياء والرسل، وعلى رأسهم آل النبي صلى الله عليه وسلم، فقد قال فيه الشاعر:

فكل البيوت وإن شرفت فلا تلحقَنْ شأو بيت النبي.[4]

انطلاقا من هذه القواعد يمكن التأكيد أن كل بيت هو أسرة، وأن ليس كل أسرة هي بيت، فهذا الأخير يبدو أكثر شمولا لأنه يجمع بين العلم والجاه والنسب والسلطة والثروة ويمتد لفترة زمنية أطول؛ في حين أن الأسرة لا يوجد بها سوى شرط العلم انطلاقاً من ثلاثة أجيال (الجدّ-الأب-الابن). ويبدو أن التصور الراجح عن عائلة الفرسطائي هو تصنيفها ضمن الأسر، وإن كان يبدو لنا تميزها ببعض صفات البيت.

3. الدراسات السابقة حول البيوتات العلمية المغربية

إن السمة البارزة على دراسات الأسر والبيوتات العلمية هي ارتباطها بمجال جغرافي قد يتّسع ليشمل إقليما أو دولة، مثل دراسة الباحثة لزغم فوزية: البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني. وقد يتقلص ليضمّ حاضرة فقط، وهي الدراسات الغالبة سواءً كانت مصادر أو مراجع، مثل: (بيوتات فاس الكبرى) لابن الاحمر الغرناطي و(بيوتات فاس الصغرى) لعبد الرحمن الفاسي و(زهر الآس في بيوتات فاس) لعبد الكبير بن هاشم الكتاني؛ ودراسة الباحث نصر الدين بن داود: بيوتات العلماء بتلمسان (ق.7-10هـ)؛ ودراسة الباحثة لزغم فوزية: البيوتات العلمية في قسنطينة وبجاية. وقد يكون الحيز الجغرافي عبارة عن واحة صحراوية مثل دراسة الباحث محمد الفاطمي: البيوتات

2- لزغم فوزية، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي (1520-1830م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران-الجزائر، 2013-2014م، ص.26

3- بن داود نصر الدين، بيوتات العلماء بتلمسان (ق.7-10هـ)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبو بكر بلقايد، تلمسان-الجزائر، 2009-2010م، ص.57

4- الكتاني، المرجع السابق، ص.45

العلمية بقورارة. ومكانة دراستنا هذه وسط بينها، فهي لأسرة علمية في بيئة واحاتية، وفي إقليم أريغ.

4.ملامح الأسرة العلمية في المصادر الاباضية

من خلال مسحنا للمصادر الاباضية المغربية تبيّن لنا أن الأسرة البكرية تتكون من خمسة أجيال علمية بشكل مؤكّد، على مدار أكثر من قرنين، من الطبقة السابعة (300-350هـ) إلى الطبقة الثانية عشر (550-600هـ)، وثبتت صفة البيت العلمي على عائلة الفرسطائي؛ إذ تناولت المصادر الاباضية شخصية أبي عبد الله باعتباره ينتمي لبيت مذهب وبركة وتأليف في كل فن، فوصفته أنه "بيت أهل المذهب المشهور بالبركات، والمعتمد عليه فيما أصّل للحركات والسكنات."[5] كما أكّدت تلك المصادر توارث ذرية أبي عبد الله لصفاته الأخلاقية والعلمية، فقالت: "وهي باقية لذريته يتوارثها بُدُورُها وكواكبها."[6] وعن توارث العلم دائماً في الأسرة البكرية يكتب الشماخي عن أبي نوح بن يوسف وابنه أبي زكريا يحي وهما على التوالي ممّن يصنفون ضمن الجيل الرابع والخامس، "وهما اللذان أحيا ما ورثاه عن جدّهما محمد بن بكر، وبقيت فيهما بركته تتوارث إلى هذا العصر، بل هي باقية إن شاء الله بفضله إلى يوم الحشر."[7] ويضيف الشماخي قائلا عن الاسرة: "ودارهم معدن العلم قديما، من أبيه وجدّه وجدّ جدّه... ولكنهم دونه في الشهرة.[8] وهو نفس ما عبّر عنه علي يحي معمّر واصفاً أبي عبد الله محمد بن بكر بأنه "من أسرة مشهورة بالعلم والعمل والصلاح، فقد كان أبوه وجدّه من علماء الجبل، ولهما في كتب الفقه أقوال منتشرة في مختلف مسائل الفروع."[9] ولم يبيّن الشماخي ولا علي يحي معمر اسم جدّه، ممّا تعذّر علينا التعرف عليه.

وجاءت تراجم الأسرة البكرية متتابعة في إحدى المصادر مرتبطة بمنطقة جغرافية تحت عنوان "حكاية ريغ" وفيها مسائل وروايات وحكم "الجدّ" بكر بن أبي بكر وحكم

5- الدرجيني. أبو العباس أحمد بن سعيد (ت. حوالي 670هـ)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، ج2، تح: طلاي إبراهيم، وزارة الثقافة، الجزائر، 2015م، ص.197

6-الدرجيني، نفس المصدر، ص.197

7- نفسه، ص.332

8- الشماخي. أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد (928هـ/1522م)، كتاب السير، ج2، تح: محمد حسن، دار المدار الإسلامي، بيروت-لبنان، ط1، 2009م، ص.569، 578

9- معمر. علي يحي، الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الرابعة، الاباضية في الجزائر، ج1، تصحيح أحمد عمر أوبكة، المطبعة العربية، غرداية-الجزائر، 1985م، ص.169-170

ومسائل وأجوبة "الأب" أبي عبد الله محمد بن بكر ومسائل "الابن" أبي العباس أحمد بن محمد ومسائل الأحفاد إسماعيل بن أبي العباس وإسحاق بن أبي العباس[10] وفيما يلي الشجرة العائلية التي تمثل خمسة أجيال. ويبقى ابي عبد الله محمد بن بكر المؤسّس الفعلي للأسرة البكرية، فهو أشهر وإن كان أبوه بكر بن أبي بكر أقدم. ونسجّل هنا أن من أهم المصادر التي اهتمت بالأسرة البكرية، الوسياني صاحب السير ومجهول صاحب المعلقات، وبدا واضحا أن الوسياني ركّز على جانب السيرة والرقائق والأخلاق في حياة الأسرة؛ في حين خصّص صاحب المعلقات فقرات مستقلة عن مسائلهم وجواباتهم

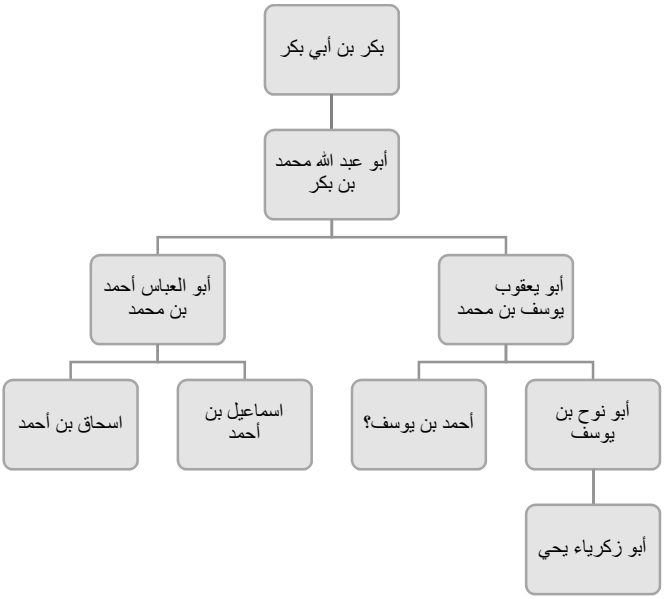

إن من ملامح الاسرة البكرية، كثرة التنقل طلباً لعلم أو ابتعاداً من وباء، أو هروباً من فتنة، أو أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر. وهي صفة يشترك فيها فقهاء الاباضية مع غيرهم من فقهاء المذاهب الأخرى في السفر والترحال، فبكر بن أبي بكر والد مؤسس الحلقة أصله من فرسطاء بجبل نفوسة، استقر بمنطقة أريغ معظم حياته، حتى صنّفه صاحب المعلقات جغرافيا في تلك المنطقة، وحسب الشماخي فإنه خلّف ابنه أبا عبد الله بالمغرب،[11] وتتناقل كتب السير أنه تتلمذ على أستاذه سليمان بن ماطوس في جبل

10- مجهول، كتاب المعلقات في أخبار وروايات أهل الدعوة، تح: بابزيز الحاج سليمان الوارجلاني، وزارة التراث والثقافة، مسقط-سلطنة عمان، ط1، 2009م، ص.111-126

11- الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص.569

نفوسة، والتقى بفقهاء قدموا من جربة في منطقة نفزاوة، وكان أكثر سفره في مناطق الاباضية بإفريقية.[12] وأبي عبد الله محمد سافر إلى القيروان لتعلم النحو والعربية قبل قعوده للحلقة، ثم زار أغلب مواطن الاباضية لترسيخ نظام الحلقة، وذكرت إحدى المصادر أنه كان يشتي في أريغ ويربع في البراري عند بني مصعب."[13] ولقّب بالسائح بسبب كثرة ترحاله.[14] وغادر ابنه يوسف بن محمد أريغ إلى وارجلان على إثر فتنة وقعت بين وهبية أريغ سنة 471هـ، ثم كانت وفاته بتمواط بالقرب من وارجلان.[15] كما غادر حفيده أبو زكريا يحي بن أبي نوح بن يوسف تين يسلي إلى وغلانت بأهله، وفيها كان استقراره، وكان يتفقد قرى أريغ مع حلقته درءاً للفساد والفتنة وتخريب العمران.[16]

كما تمثل الأسر العلمية نموذجاً للأسرة المسلمة الناجحة في التفاف افرادها حول قيم العلم وتقديسهم للدين الإسلامي واحتفائهم باللغة العربية. وقد ساهمت أسرة الفرسطائي كعديد الأسر العلمية المغربية في خدمة مسائل الشرع والتدريس والافتاء والقضاء والتوثيق والعمران بلغة عربية فصيحة في بيئة قبلية بربرية محافظة، فكونت مجتمعا مخلصا للدين الإسلامي ومحبا للغة القرآن. كما جسّدت الارتباط بين المغرب الاسلامي ومشرقه على ضوء شبكة من الأفكار.

1.4.بكر بن أبي بكر بن يوسف الفرسطائي

هو والد مؤسّس نظام الحلقة، ذكره الدرجيني ضمن فقهاء الطبقة السابعة (300-350هـ) من دون أن يخصّص له ترجمة مستقلة لكنه نقل له ثلاثة مسائل فقهية في معرض حديثه عن أستاذه سليمان بن ماطوس، وإلاّ فإننا نرجح أن بكراً قد توفي بعد 350 هـ، والاصوب أن يكون ضمن الطبقة الثامنة (350-400هـ) خاصة إذا علمنا أن ابنه محمد توفي في 440 هـ. ورغم قلة المعلومات التي وردت في شأنه، إلاّ أن الوسياني روى له ثلاثة روايات

12-مجهول، المصدر السابق، ص.111-113؛ الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص.168-169

13- أبو زكرياء. يحي بن أبي بكر (474هـ)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تح: إسماعيل العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط2، 1982م، ص.266

14- كاسترس. أم. أتش، بيبليوغرافيا الإباضية، ج1، قسم المغرب، تر: موحمد ؤمادي-خديجة كرير، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، سلطنة عمان، ط1، 2012م، ص.713

15- الوسياني. أبو الربيع سليمان بن عبد السلام (ق. 6هـ/12م)، سير الوسياني، ج2، تح: بوعصبانة عمر بن لقمان، وزارة التراث والثقافة، مسقط-سلطنة عمان، ط1، 2009م، ص.583؛ الشماخي، السير، ج2، ص.618

16- الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص.333

وزاد عليها صاحب المعلقات واحدة، ونقلها الدرجيني والشماخي، وهي في أمور فقهية مال فيها إلى الترخيص. وما يبين مكانته الفقهية أنه خالف في فتاويه فقهاء من أمثال أبي صالح اليراسني وابي مسور،[17] وعندما احتكموا إلى شيخهم سليمان بن ماطوس، قال لهم: "الفرسطائي عالم"[18]

وفي هذا الجدول، المسائل التي أفتى فيها بكر بن أبي بكر.[19]

مسائل بكر بن أبي بكر	رأي من معه من الفقهاء	رأيه
في رجل بان منه عضو وردّه في حاله	أنه لا يصلّي به	يصلّي به
امرأة تغسل صوف شاة ميتة	صوف الميتة لا ينقيه الغسل، وإنما يترّب في التربة البيضاء في سبعة أمكنة بسبعة قضبان، ثم تغسل	تغسل صوفها حتى تنقيه كغيره، ثم ترفعه
رجل منجوس اليد تيمم بهما في موضع	قالوا بأن يديه طاهرتان والمكان نجس، والتيمم لم يجزه	يداه طاهرتان والموضع طاهر والتييم قد أجزاه (النجس ذهب بين الضربات)
في رجل مشى معهم وسألهم: ما الذي أصلي قصرا أم تماما ؟	صلّ صلاة المقيم حتى تجاوز ستة أميال	قال له: صلّ صلاة المسافر إذا نويت خروج ستة أميال

17- هما أبو موسى عيسى بن السمح وأبو صالح اليراسني عند: مجهول، المصدر السابق، ص.111-112؛ وهما أبو صالح وأبو مسور ومن معهما عند: الوسياني، المصدر السابق، ج1، ص.294؛ وهما أبو صالح اليراسني وابو موسى ومن معهما من التلامذة، عند: الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص.168؛ ونقل الشماخي/ج2، عن الدرجيني، ص.434.

18- الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص.169

19- الوسياني، المصدر السابق، ج1، ص.294-295؛ مجهول، المصدر السابق، ص.111-114؛ الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص.168-169؛ الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص.434-435

2.4.أبي عبد الله محمد بن بكر بن أبي بكر بن يوسف

ولد أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي في منتصف القرن الرابع هجري بمدينة فرسطاء في جبل نفوسة، وتوفي سنة 440هـ/1049م في آجلو إحدى قرى أربغ.[20]

بلغ الشيخ مكانة مرموقة بين عامة الاباضية في مختلف القرى والمدن التي انتقل إليها، وعادة ما يعبّر العامة عن احترامهم للفقهاء بإكرامهم بأشكال مختلفة، والإهداء لهم بالمأكل مثلا، فيستضيفونه مع تلاميذه وتوضع لهم موائد الطعام. بالمقابل يحرص مشايخ العزابة على قبول الإكراميات والضيافات بحياء وحذر؛ فمن مظاهر الإهداء أن أرسل رجل من وارجلان إلى أبي عبد الله محمد بن بكر مؤسس حلقة العزابة طعاما عبارة عن لفائف وشيء من الجمار، فاكتفى الفقيه بأكل الجمار وردّ اللفائف وقال: "وما نحن والهدايا"[21] ومرّة غادر الشيخ ولم يأكل عندما رأى أن الطعام الذي وضع له أحسن من الذي وضع في موائد أصحابه.[22] وردّ مرّة عبداً لصاحبه تحرجا منه، لأن صاحب العبد أنقص له من ثمنه خمسة دنانير.[23] يجسد مظهر الضيافة في كتب السير والتراجم لفقهاء الاباضية وتلامذتهم مؤشراً قويا على بداية تأثير المرجعية ونجاحها في تحقيق التفاف العامة حول مشيخة العزابة. وبعض الإشارات توحي أن مظهر الضيافة قديم عند الجماعة الاباضية، وإنما تم إحياؤه فقط، فقد طُلِب من أبي عبد الله أن يدعوا لشخص قام بضيافة مجموعة من العزابة، فردّ: "فهلا قلتم: إن فلانا قام بدين الله وأحيا سير الأوائل من السلف الصالحين."[24] ويقصد بسير الأوائل كذلك نظام الحلقة الذي كان سائدا عند اباضية البصرة في مرحلة الكتمان وعند اباضية تاهرت في مرحلة الظهور.[25]

20- علي يحي معمر، المرجع السابق، ج1، ص.169؛ جمعية التراث، لجنة البحث العلمي، معجم أعلام الاباضية (قسم المغرب الإسلامي)، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط2، 2000م، ص.370

21-أبو زكرياء، المصدر السابق، ص.279

22- أبو زكرياء، نفس المصدر، ص.279

23- نفسه، ص.280

24- الوسياني، المصدر السابق، ج2، ص.818

25- جمعية التراث، لجنة البحث العلمي، معجم المصطلحات الاباضية، ج2، الشروق للإعلام والنشر، الجزائر، 2011م، ص.697

بالمقابل كان الشيخ صاحب مال كبير وضيعات كثيرة على الرغم من ميله إلى مظاهر الزهد، فقد ذكرت المصادر أن له أغنام تسرح في البادية يقوم عليها رعاة.[26] وتتكرر بعض العبارات التي تفيد حالة الغنى واليسر التي كان عليها الشيخ، منها عبارة: "كان له عمال يعملون"[27] وكان فوق ذلك ممّن يرعى تلاميذه ويتولى الانفاق عليهم.[28] وإليه يعزى تحويل قبيلة بني مزاب الزناتية من مذهب الواصلية إلى مذهب الاباضية. ولم تصل إلينا مؤلفاته التي أشارت إليها بعض كتب السير والتراجم، منها قول الدرجيني: "وله في كل فن تآليف كثيرة، وأكثرها الحجج والبرهان ... وحفظ عنه في الأخلاق حكم قد خلّدت في بطون الأوراق."[29]

إن مما اشتهر به أبي عبد الله، تأسيسه لنظام حلقة العزابة الذي يقوم على تكوين مجموعات من طلبة العلم في حلقات وفق نظام تعليمي صارم يقف على كل جوانب الحياة اليومية للطلبة، من مأكل ومأوى وتحصيل وتأديب؛ ويحرص على وضع برنامج يومي دقيق بحيث لا يترك مجالاً للفراغ أو للصدفة، وهو نظام قائم على درجة عالية من الالتزام، نظّر له الشيخ أبو زكرياء فصيل بن أبي مسور وطبّقه الشيخ أبو عبد الله فاشتهر بذلك هذا النظام عند بعض كتاب السير باسم السيرة المسورية البكرية.[30] وإن أجمع الباحثون أن الحلقة بدأت تربوية علمية محضة، ثم تطورت مع مرور الزمن إلى نظام اجتماعي سياسي للجماعات الاباضية في المغربين الأدنى والأوسط.[31] إلاّ أن الإشكال يبقى قائما حول ظروف تدرج هذا النظام ورصد التراكمات التاريخية التي حقّقت المرجعية الدينية للمجتمعات الاباضية في نفوسة وجربة والجريد ووارجلان ومزاب.[32] ويؤكد الباحث صالح

26- أبو زكرياء، المصدر السابق، ص.273؛ الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص.197؛ جمعية التراث، معجم الأعلام، ج2، ص.368

27- أبو زكرياء، نفس المصدر، ص.273

28-علي يحي معمر، المرجع السابق، ج1، ص.173

29- الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص.197

30- جمعية التراث، معجم الأعلام، ج2، ص.369

31- جمعية التراث، معجم المصطلحات الاباضية، ج2، ص.698

32- بعض الباحثين اختزلوا مراحل التدرج وجعلوا النظام منذ البداية يتولى شؤون المجتمع الاباضي. أنظر مثلا: علي يحي معمر، المرجع السابق، ج1، ص.171

اسماي أن نظام الحلقة بدأ على شكل حلقات للتدريس ثم تطوّر إلى مهام الحسبة في الإسلام.[33]

ويبقى النظام الذي سار عليه أبي عبد الله منهجا رائداً في ميدان التربية والتعليم؛ إذ يعلق علي يحي معمر قائلاً: "إن في ذلك المنهاج إقراراً لكثير من الآراء التربوية التي نعتقد أنها حديثة وأنها آتية من الغرب وذلك كحالة توحيد اللباس والتربية العملية والرحلات المدرسية واشتراك الطلبة في إدارة المدارس وغير ذلك من الآراء التي يفتخر الناس بها اليوم."[34]

3.4.أبو يعقوب يوسف بن محمد

خصّص له الدرجيني رفقة أخاه أبا العباس ترجمة موحدة ضمن الطبقة العاشرة (450-500هـ) وقال عنهما: "كانا في طلب الخير فرسي رهان، مشتركين في كل فضيلة شركة عنان فلعلّ أحدهما أعلم والآخر أزهد، ولكلا الوصفين دلائل تشهد، فإن المنسوب إلى أحدهما تأليف كتاب أو تهذيب جواب، والمنسوب إلى الآخر دعاء مستجاب واستعداد لمآب، بيد أنهما معا حائزان على هذا السباق، ومن دون أغبارهما تقطعت الأعناق، ولا غرو لأمثالهما في جميع أحوالهما، فإن مفيض ضيائهما بدرٌ باهر النور بهيجه، وهل ينبت الخطّيَّ إلاّ وشيجه؟"[35] وفي سير الوسياني بعض أخباره في فقرة عنوانها: "روايات أبي العباس أحمد وأخيه أبي يعقوب ابني أبي عبد الله محمد بن بكر" بعضها يتعلق بعلاقته مع والده؛ فهو الذي كان يتفقد أغنام والده بإحدى بوادي أربغ ممتطيا جملا،[36] وهو الذي كان قائما على تنفيذ وصية والده بطلب منه،[37] وكان جزاء مرافقته لوالده أن أوصى له قبل وفاته ببستان، ولما استغربت زوجته خاطبها مؤكداً: "جناني المعروف بالعيون ليوسف ولدي، ولم يرجع لي عندك العلم، وقد عنيته بأكثر من ذلك."[38]

33- اسماوي صالح بن عمر، العزابة ودورهم في المجتمع الاباضي في ميزاب، ج1، جمعية التراث، القرارة-غرداية-الجزائر، ط1، 2005م، ص.293-294

34- علي يحي معمر، المرجع السابق، ص.183

35- الدرجيني، المصدر السابق، ج2، ص.266-267

36- الوسياني، المصدر السابق، ج1، ص.360-361

37- الشماخي، المصدر السابق، ج2، ص.577-578

38- الوسياني، نفس المصدر، ج1، ص.489

وكان له موقف محايد من فتنة بين وهبية أريغ سنة 471هـ وغادرها إلى وارجلان، ثم كانت وفاته بتمواط، وكان أوصى على تنفيذ وصيته أخاه أبا العباس أحمد.[39] وعلى خلاف فقهاء الأسرة البكرية لم يخصّص صاحب المعلقات أي مسألة لأبي يعقوب يوسف.

4.4.أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر (ت.504هـ/1111م)

يعتبر أبو العباس أحمد بن محمد الوحيد ممّن يمكنه منافسة والده في المكانة العلمية، بل هو الرائد في مجال التأليف، وهو من أكثر فقهاء الاباضية غزارة في التآليف، وكتبه متنوعة الفنون، منها في العقيدة، وعلم الكلام، والفقه، والنوازل، وفقه العمران، والرقائق والأخلاق، والجدول الآتي يلخص أهم آثاره المكتوبة.[40]

الكتاب	حالته
كتاب أبي مسألة	تحقيق محمد صدقي وإبراهيم اسبع
كتاب الألواح	محتوى بعض النسخ هو نفس محتوى كتاب المعلقات لمجهول
كتاب الأموات	مخطوط، ربما هو كتاب الجنائز
ديوان العزابة	مخطوط اشترك في تأليفه مع ثمانية من العلماء
كتاب الديات	مخطوط
كتاب الجامع المعروف بأبي مسألة	مطبوع
كتاب في التوحيد مما لا يسع الناس جهله	مخطوط
كتاب القسمة وأصول الأرضين	تحقيق محمد ناصر وبكير الشيخ بلحاج
كتاب تبيين أفعال العباد	مطبوع

وتوجد بعض العناوين التي رآها البرادي وذكرها في تقييد مؤلفات الاباضية، ولكنها لم تصل إلينا. وبالإضافة إلى تآليفه الكثيرة، فقد اعتبره المستشرق الفرنسي بيار كوبرلي

39- الوسياني، نفس المصدر، ج2، ص.583؛ الشماخي، نفس المصدر، ج2، ص.618

40- للتعرف أكثر على مؤلفات أبي العباس، أنظر: كاسترس، المرجع السابق، ج1، ص.689-710؛ جمعية التراث، معجم الأعلام، ج2، ص.48-50

إمام دفاع بناءً على ما ذكره الوسياني من أنه تصدّى مرتين لهجمات على أريغ، وفي كل مرّة كان أبو العباس يجمع مغراوة ويردّ بها المهاجمين.[41]

5.4.إسحاق بن أبي العباس أحمد بن محمد بن بكر

قدمته إحدى المصادر كواحد من طلبة العزابة زمن والده أبي العباس أحمد، وهو شاب بالتأكيد لم يبلغ بعد درجة الفقهاء، علماً أنه توفي في حياة والده.[42] ومن الوقائع التي ذكرت عنه أنه ممن يواظب على قراءة الكتب، منها كتاب المواعظ (الذي لم يعرف مؤلفه)، ونقلت عنه بعض الوقائع المتعلقة بممارسة العزابة في آداب الطعام، أحيانا تنقل عنه مخالفة كالتمادي في الأكل في حضرة شيخهم.[43] ثم وجدناه في مصدر آخر، صاحب مسائل على قلّتها؛ إذ خصّص له صاحب المعلقات عنوانا وفقرة خاصة، فيها ثلاث مسائل فقهية هي:

نص المسألة	رأيه
الكراء لأصحاب الجمال	لا يجب الكراء لأصحاب الجمال حتى يوصلوا الأحمال إلى الموضع الذي اتفقوا عليه
في رجل وجد كنزا ولم يخرج منه خمسه	يهلك بذلك
إذا اقتصّ الرجل حقّه من آخر	يهلك بذلك

6.4.إسماعيل بن أبي العباس

يرجح أنه أكبر من أخيه إسحاق فقد جعلته المصادر في مرتبة الفقهاء الذين تعلم منهم أخاه إسحاق، مثل الشيخ يخلفتن الزنزفي وحمو بن المعز النفوسي، ووصف مع فقهاء آخرين بأنهم "علماء فقهاء صالحو زمانهم."[44] وله رواية في آداب الأكل ذلك أنه "لم يبلغ له الطعام قطُّ راحته، ولا يعجّل المضغ والبلع، ولا يعظِّم اللُّقم."[45] ومن الإشارات اللافتة أن الوسياني خصّص فقرة لروايات التائبين، كان منهم إسماعيل بن أبي العباس هذا، لكنه لم يبيّن وجه المخالفة واكتفى بالقول أن شيوخ أهل الدعوة سنة 408هـ "أوقفوا

41- جمعية التراث، معجم الأعلام، ج2، ص.49
42- الوسياني، المصدر السابق، ج2، ص.711
43- الوسياني، نفسه، ص.674-675، 731
44- الوسياني، المصدر السابق، ج1، ص.344
45- الوسياني، نفسه ص.674

إسماعيل بن أبي العباس، فعاتبوه حتّى تاب من كلّ شيء نقموه عليه، فقبل عنه الشيوخ سنة ثمان، ولم يتركوا شيخا في أربغ إلاّ عاتبوه."[46] من المسائل القليلة التي وثقتها إحدى المصادر هي:

المسألة	رأيه
في رجل باع ميتة وانتفع بثمنها	يهلك بذلك
اللحم إذا بات	يعيبه ذلك، ويرجع به
في رجلين قال أحدهما للآخر: لي عليك دينار، فأعطه لي. فقال صاحبه: أخذته منّي	قال: يجبر أن يحضر الدينار، ويحلف صاحبه أنّه ما أخذه منه كما ذكر، ويأخذ دينار
في رجل أتى امرأته بشهوة غيرها	تَحرم عليه بذلك

7.4.أحمد بن يوسف: من ابناءه الذين واصلوا مسيرة الأسرة العلمية، أبو نوح بن يوسف صاحب السير الكثيرة التي اعتمد عليها كتاب السير والتراجم جميعهم، وأحمد بن يوسف الذي رجّح محقّق كتاب سير الوسياني أنه من أبناءه؛ إذ لم يزد المؤلف في النسبة شيئاً، وذكر له فتواه في أربعة مسائل لأهل البدو،[47] وهي:

نص المسألة	رأيه
الزريعة إذا كانت حراما	ألاّ تجرَّ الحرام
الفحل الحرام	لا بأس بإنزائه
البقر الحرام	لا بأس بالزراعة به
السكّة ن الدراهم والدنانير والفلوس، ولو كانت من الجائرين	لا بأس ولا ريبة فيها

8.4.أبو نوح بن يوسف وابنه أبو زكرياء يحي

تبدو شخصية أبي نوح مثيرة للاطّلاع، فهي حسب الدرجيني تسعى لتنمية الصلاح ومحاربة الفساد، يحترمه القوي والضعيف، القريب والبعيد من أهل مذهبه وغيرهم. وأمّا الصفة الأهم فيه فهو كونه حافظا لسير فقهاء المذهب وأخبارهم، وقطع الدرجيني الشك باليقين عندما قال: "فمتى رأيت في هذا الكتاب أو في غيره من كتب المشايخ رواية عن

46- نفسه، ص.714

47- نفسه، ص.583

أبي نوح فهو هذا الشيخ فاعرفه."[48] ويعتبر الوسياني أكثر من نقل عنه؛ إذ أحصينا في كتابه 75 رواية نقلها عنه.[49]

وابنه أبو زكرياء يحي له تآليف مفقودة، منها تأليف في المذهب، وقصيدة حجازية وأخرى في الاعتقاد، ومراسلات مع فقهاء. وقد عاش في الفترة التي ضعفت فيه دولة الموحدين وقلّ الأمن في البوادي والطرقات، ولأبي زكرياء من قوة الشخصية ما سمح له بتتبّع المفسدين في محيط أريغ وقراها ينتقل بحلقته آمراً بالمعروف ناهيا عن المنكر، ويمارس دور الحاكم في منطقته باستنهاض العساكر في وقت الحاجة، ويقتل من استحق القتل، أو يسجنه أو يقوم بتعزيره بالحدّ أو النكال.[50]

5.خاتمة: سعينا من خلال هذه الورقة إلى التنقيب عن ظاهرة الأسر العلمية الاباضية، وكانت أسرة الفرسطائي بأعلامها التسع، هي النموذج، ساهمت في إثراء المشهد الثقافي الاباضي المغربي. تفتح هذه الدراسة –في اعتقادنا-آفاقاً علمية لدراسة ظاهرة الأسر والبيوتات العلمية في المجال الإباضي بشكل معمّق؛ إذ يمنح التراث الإباضي المغربي فرصة سانحة للتنقيب حول الظاهرة، سواءً تعلق الإطار الزمني بالفترة الوسيطة أو الحديثة، ومن النماذج التي يمكن التفكير فيها، نذكر على سبيل المثال الأسرة المسورية، وفي الفترة الحديثة يظهر بيت البرادي الشماخي والباروني كأكثر البيوت حضورا وتأثيرا، وفي الفترة المعاصرة يظهر بيت اطفيش كبيت علمي بامتياز. ويمكن انجاز دراسات عن اسر علمية في بيئات محلية؛ إذ علّق الشيخ محمد علي دبّوز في كتابه نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة عن إحدى أسر بلدة العطف قائلا: "وأسرة أبي عبد الله أنشأت علماء كثيرين في العطف".

6.المراجع

اسماوي صالح بن عمر، العزابة ودورهم في المجتمع الاباضي في ميزاب، ج1، جمعية التراث، القرارة-غرداية-الجزائر، ط1، 2005م

02.بن داود نصر الدين، بيوتات العلماء بتلمسان (ق.7-10هـ)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ الوسيط، الجزائر، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة أبو بكر بلقايد- تلمسان، 2009-2010م

48- الدرجيني، الطبقات، ج2، ص.332-333.

49- الوسياني، السير، ج3، ص.1079-1080

50- الدرجيني، الطبقات، ج2، ص.333؛ جمعية التراث، معجم أعلام الاباضية، ج2، ص.440

03.جمعية التراث، لجنة البحث العلمي، معجم أعلام الاباضية (قسم المغرب الإسلامي)، ج2، لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط2، 2000م.

04.ـــ، معجم المصطلحات الاباضية، ج2، الشروق للإعلام والنشر، الجزائر، 2011م

05.الدرجيني. أبو العباس أحمد بن سعيد (ت. حوالي 670هـ)، كتاب طبقات المشايخ بالمغرب، ج2، تح: طلاي إبراهيم، الجزائر، وزارة الثقافة، 2015م.

06.أبو زكرياء. يحي بن أبي بكر (474هـ)، كتاب سير الأئمة وأخبارهم، تح: إسماعيل العربي، لبنان، دار الغرب الإسلامي، ط2، 1982م.

07.الشماخي. أبو العباس أحمد بن سعيد بن عبد الواحد (928هـ/1522م)، كتاب السير، ج2، تح: محمد حسن، لبنان، دار المدار الإسلامي، ط1، 2009م.

08.كاسترس. أم. أتش، بيبليوغرافيا الإباضية، ج1، قسم المغرب، تر: موحمد ؤمادي-خديجة كرير، سلطنة عمان، وزارة الأوقاف والشؤون الدينية، ط1، 2012م

09.الكتاني. الشريف عبد الكبير بن هاشم، زهر الآس في بيوتات أهل فاس، ج1، تح: علي بن المنتصر الكتاني، المملكة المغربية، منشورات النجاح، ط1، 2002م

10.لزغم فوزية، البيوتات والأسر العلمية بالجزائر خلال العهد العثماني ودورها الثقافي والسياسي (1520-1830م)، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، الجزائر، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2013-2014م

11.مجهول، كتاب المعلقات في أخبار وروايات أهل الدعوة، تح: بابزيز الحاج سليمان الوارجلاني، سلطنة عمان، وزارة التراث والثقافة، ط1، 2009م.

12.معمر. علي يحي، الاباضية في موكب التاريخ، الحلقة الرابعة، الاباضية في الجزائر، ج1، تصحيح أحمد عمر أوبكة، الجزائر، المطبعة العربية، 1985م

13.الوسياني. أبو الربيع سليمان بن عبد السلام (ق. 6هـ/12م)، سير الوسياني، ج1، ج2، ج3، تح: بوعصبانة عمر بن لقمان، سلطنة عمان، وزارة التراث والثقافة، ط1، 2009م.